فلسفة الوعي وقراءة النص الأدبي

الباحث/ حسام عيدان نعيم الغراوي

قسم اللغة العربية

كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية – جامعة بغداد

إشراف

أ. م. د. إحسان محمد جواد التميمي

قسم اللغة العربية

الملخص:

إن مفهوم الوعي مَرَّ عبر مراحل تطورية عدّة، لاشتغاله في مجالات متعددة؛ إذ انتقل من الحفظ بوصفه معادلًا موضوعيًا إلى الذاكرة العقلية المحملة بمادة الوعي وصولًا إلى قدرة الكائن على استقبال معلوماتي منظم وتفريغ جوهري فاعل ومركز للفكر الأساس يقوم عن طريق الفهم أو الإدراك أو الشعور أو التعقل بفعل الاحتكاك السلوكي مع البيئة _ وبحسب طبيعة التأويل البشري _ بل ليس بفعل الاحتكاك فحسب؛ لأنه جزء من الطبيعة البشرية، لذا فالوعي ظاهرة إنسانية فلا يمكن أن نتصور الإنسان من دون وعي؛ إذ إنُّه تلك التصورات والمفاهيم التي يكونها الفرد حول نفسه وماهيته، وهذه أداة تفاعل مهمة مع البناء الاجتماعي كصيغة تحقق التواصل بين عناصر المجتمع.

Abstract:

The concept of consciousness has passed through evolutionary stages, not objectively jumping to the rationality of the relationship between those who know or cause behavioral friction with the environment - and according to the number of human explanations - but not because of little friction; part of human nature, alone**.**This is an important tool with social construction as a form of communication between the elements of society.

المقدمة:

إن بدايات الإنسان الأولى شكلت حضورًا قائمًا على التجهيل _ أي جاهل بمعرفة الأشياء وما حوله _ حتى إذا ما أخذ ينمو واستوى عوده كشف عن إمكاناته بما يتولد لديه من إدراك للموجودات بنشوء الوعي وعقلنته، وبحسب ديكارت فإن الوعي مرتبط كل الارتباط بالعقل، فما دام العقل في تطور فإن الوعي كذلك، وما دام التعقل نسبيًا ومتباينًا فإن الوعي كذلك أيضًا، فبوصفه وعاءً في ذهنية الكائن بما يحمله من تصورات وأفكار، فضلًا عن كونه مائزًا عن نشاطات الوعي الأخرى مثل الذكاء والذاكرة، ويرى علماء الاجتماع بأن التحولات في بنية المجتمع قد لا تتناسب مع تطور الوعي الفردي؛ لأن عملية المثاقفة أو الانتقال المعلوماتي ضمن حدود الاستقبال المعرفي للمجتمع قد تكون أكبر حجمًا من قدرة الوعي على استيعابها، لذا فإن وعي الفرد وإدراكه بما حوله يفرز عن تكوين شبكة ثقافية للكائن بشقيها السلبي والإيجابي، فإدراك الأشياء للعقل والشعور بها ما هو إلا مظهر من مظاهر العقل الواعي في الاتصال الدائم مع عالمه الخارجي والتفاعل معه في ظل وجود المدخلات الخارجية للوعي – منافذ الوعي – الباعثة في تكوين صورة في ذهنية الفرد، فالصورة الذهنية من أهم الوسائل التي يستخدمها (الوعي) في تنظيم الخبرة وكيفية التعامل مع عالمه الخارجي؛ لأن الوعي لا يستطيع الإحاطة بالوجود الذي نعيش فيه عن طريق الحواس وحدها؛ لذا يحتاج إلى القياس، إلى جانب الحدس والخيال، وهو كثيرًا ما يرضى بالاستقراء الناقص، ويلجأ إلى التعميم الذي قد لا يستند إلى معطيات كافية.

أولًا – الوعي.. في مفهوم الوعي:

يذهب ديكارت في خلق منهج التشكيك، أي وجود مسافة – فجوة توتر– بين الذات والآخر، وبين الذات والموضوعات الأخرى، هي السبيل الوحيد للوصول إلى اليقين، فهي تجعلنا نحيط بذواتنا، وبعبارة أخرى، فإن الوعي الديكارتي ينطلق من خلق فجوة قلق وانحسار معرفي يتوصل به إلى الكشف عن قطعية الشيء بفعل الفكر التشكيكي بحركية العقل نحو الموضوع، وعن طريق وجود مسافة بين الذات والآخر، أي بمعنى إطلاق حكم بواسطة الغوص في معرفة الحقيقة الماهوية للأشياء يتوافق مع حكم خاضع للتيقن في معرفتها، فالذات قادرة على معرفة ذاتها تجسيدًا، وقد استطاع من خلال هذا المفهوم الانطلاق من وعي الذات لذاتها كلحظة يقينية من دون وساطات من أحد، لينفذ إلى فكرة الكوجيتو "أنا أفكر إذا أنا موجود"[١]، التي قصد بها أن الفكر هو ماهية الأنا، وأن الدليل على وجود الأنا هو فكرها، ووجودها مرهون بلحظات فكرها، فلا (أنا) بدون فكر، ولا فكر ينشأ خارج ال(أنا)، فالفكر نابع من قدرة الأنا على الإرادة وإنارة الشكوك وكلاهما مظهرات لعملية التفكير[٢]، وبعبارة أخرى، فإن الكوجيتو الديكارتي يقوم على يقينية الأنا الواعية والإدراك الحقيقي الخاضع لفعل العقل المفكر، فهو يؤكد على الفعالية الفكرية التي تثير الكائن في إدراك ما حوله لتأسيس وجوده الاجتماعي، عن طريق إعمال التفكير المرتبط بالشك الذي يعد من أحد مصاديق العقل الواعي الذي يقود للتفكير، وبحسب وجهة نظر ديكارت الذي سيدحض هذه المقولة من بعده كل الفلاسفة، ومن ثم مرحلة الشك المؤدي للوعي فهو وجود حقيقي غير قابل التعرض للمؤثرات الضارة، فتخرجه من دائرة اليقين التي لا تقلل من أهمية وجوده الواعي اليقيني، فحضوره الفعال عن طريق ال (أنا) الموجودة دليل على تنشيط الوعي العقلي في التفاعل مع وعي الآخرين المحيط به. ويربط ديفيد هيوم وجود ال (أنا) ووعيها بذاتها بعمليات الإدراك الحسية التي تعد أساسًا لوجودها. والوعي عند هيغل: شقي يتطور وينمو من أجل بلوغ مرحلة الاكتمال بطريقة جدلية، وإن الإنسان هو

الموجود الوحيد الذي يعي ذاته، بوصفه موجودًا لذاته ،أما الأشياء الأخرى، فإنها لا توجد إلا بكيفية واحدة، لذا يجب عليه أن يعي هذه الحقيقة؛ لأنَّه مدفوع إلى أن يجد ذاته ويتعرف عليها في ما يلقاه مباشرة، أو يعرض عليه من الخارج، فهو يستطيع ذلك حينما يسقط ذاته وتمثلاته على الأشياء الخارجية، فالإنسان يعمل دائمًا على تغيير الأشياء الخارجية؛ لأنَّه يريد أن يرى ذاته تتحقق بشكل موضوعي[٣]، فالوعي الهيغلي وعي يتجاوز ذاتية الفرد التي هي محور وجوده إلى ما بعد الذات للانتقال إلى مرحلة الوعي التي تؤكد من وجوده الحقيقي، فهو يؤكد على أن الوعي متحقق بالوجودية الواعية لا الوجودية النظرية التي تنماز بخاصية التفاعل والتفكير العلمي الذي يعزز من وجودها، فهي تعطي صورة عن قدرة الإنسان في التحول من الوجود الإمكاني (الوجود النظري الذاتي) إلى الوجود الفعلي (الوجود الواعي العلمي)، بتجاوز ذاته عن طريق الاتصال بالعالم الخارجي والتفاعل معها والعمل على الإنتاج المفاهيمي المتصل بالواقع، فالإنسان كائن موجود بفعل الإمكان لا التكوين فهو مرحلة انتقال مستمر في البحث عن ذاته الواعية وهذا ما ينماز به عن بقية الكائنات. ويربط برجسون بين الوعي والذاكرة لكونه امتدادًا نحو الماضي وتراكم نحو الحاضر، واستباق في الوقت ذاته واستشراف نحو المستقبل. إنَّه استمرار للذات وللأشياء في صيرورتها وديمومتها، فعندما نفكر في أي لحظة نجد هذا الفكر يهتم بالحاضر، ويتجاوز هذا الحاضر نحو المستقبل الذي يجعل الفكر يتقدم باستمرار دون انقطاع في الزمن، فالوعي صيرورة وحركة وصلة بين ما كان وما سيكون، وبالتالي فشرط وجود الوعي عند برغسون هو وجود الذاكرة واستقراره فيها ليصبح انفتاحًا على الحاضر والمستقبل في الآن ذاته[٤]، ويشير (وليم جيمس) إلى وجود حالة من الوعي تحدث في ذهنية الفرد تتسم بالتفاعل والجريان غير المحدود، أطلق عليها (تيار الوعي)، ومفهوم الوعي عنده شامل يحتوي على التجارب الحسية والشعورية، فهو يضم في رأيه "كل ما هو عقلاني وغير عقلاني، وما هو انفعالي، وما هو مرتبط بأعمال العقل والنسيان والذاكرة "[٥]، فالوعي بوصفه صفة

إنسانية ينماز من الكائنات يشتمل على التجارب السابقة والشعور بالحاضر والاستشراف بالمستقبل والمفاهيم وحالات شعورية أخرى تتعلق بالعاطفة والإحساس، وقد يقترب الوعي بالوجدان من الناحية اللغوية :"بأنَّه كلمة تترادف مع كلمة الوجدان أو الشعور، فالوجدان هو كل ما يجده الإنسان في وعاء ذاته، عقليًا أو مدركًا ولا عقليًا باطنيًا، يدرك بالقوى الباطنية في الإنسان".

ويرى فرويد بأن قدرة "الإنسان على فهم لا شعوره والغوص في ظلمات هذه النفس التي كانت نقطة جهل قبل وضع أساس منهج التحليل النفسي"[٦]، فهو يؤكد على فهم الشيء وإدراكه؛ لأن الأفعال الصادرة باتجاه معرفة الشيء الذي يعد الإنسان مصدرها خاضعة لدوافع اللاوعي لا الوعي فلا يوجد تيقن في الأفعال– الصادرة عن الوعي– التي ربما يشوبها التفسير الخاطئ وفق الفهم المنفلت عن التحليل الصحيح ضمن المنظومة المعرفية المنتجة للحكم بحسب فرويد، فهو يحاول أن يقلل من شأن الوعي بتفضيل اللاوعي. ويرى ماركس بأن الوعي يتحقق بتحقق كينونة الفرد ووجوده الاجتماعية بوصفه عنصرًا اجتماعيًا متفاعلًا مع أقرانه عبر شبكة من التواصل الاجتماعية المتصلة بإنتاجية الفرد التي تحدد طبيعة العلاقة وتجعله في اتصال حقيقي ومباشر مع الواقع، فالوعي خاصية إنسانية تشتغل على ماهوية الفرد من منظور المحاكاة التي يتحدد وفقها سلوكيته وتصرفاته، وهذا ما يؤكد على واقعيته، فإن الوجود الواعي للفرد لا يقيم على أساس وعيه الفردي المنعزل عن إطار الوعي الجمعي؛ لأن الوعي الفردي جزء لا يتجزأ من الجماعة، الذي تشترك بينهم خصائص وصفات اجتماعية كفيلة بتكوين إيديولوجية خاصة. وقد ربط برتراند راسل الوعي بالمدركات الحسية أو الخبرات الحسية؛ إذ أكد على ضرورة عدم فصله – أي الوعي – عن مثيرات العالم الخارجي، فهو عبارة عن ردود أفعال اتجاه وسطه، وهذا يعني

أن الوعي طاقة ينماز بها الإنسان عن الجمادات، ومن ثم فإن راسل أكد على تلازم الوعي مع حالة اليقظة، وليس مع حالة النوم أي أنَّه غير مستمر في الزمن، وأكد كذلك على ضرورة الانتباه إلى عامل اللغة؛ لأنها في نظره جهاز ونظام غير منسق.

وهنا نجده يميز بين نوعين من اللغة: لغة مرشدة تمكن من فهم طبيعة العالم الذي نتحدث عنه، ولغة مظللة وخداعة للتفكير، ومن ثمة فإن كثيرًا من الفلاسفة الذين اعتمدوا عليها ظلوا وأظلوا(٧)، وبعبارة أخرى، فإن راسل يؤكد على أهمية العقل داخل التكوين البشري في الإحساس بوجوده الذي ينماز من الجمادات، فما يصدر عن الفرد من سلوك أيديولوجي اتجاه ما يحيط به من مؤثرات خارجية ينقل الفرد من مستوى الإدراك الجامد المغيب عن فهم الأشياء وعلاقتها بوجوده الإنساني، وبعبارة أخرى، يتحول الإدراك من الوعي الخاص بالجمادات بوصفه رَدَّة فعل طبيعية اتجاه مؤثرات العالم الخارجي على مستوى الإدراك لمعرفة العلاقات الداخلية للإنسان وارتباطها بالعالم الخارجي، وبعبارة أخرى، يتحول إلى وعي الاستبطان بوصفه ردة فعل مدركة حجم العلاقات بين الإنسان وواقعه، وعلى هذا النحو تتحد سلوكية الفرد في واقعه الاجتماعي، لذا فإن الوعي بالذات عند راسل يعني أمرين هما: دخول هذا الإنسان في علاقة مع العالم الخارجي، واكتشافه لذاته ولأفكاره ولعواطفه وهذا ما يعرف بعملية الاستبطان(٨)، وقد تميَّزت رُؤية بورديو في وعي الواقع وفهمه على ربط ما هو ذاتي بما هو موضوعي؛ إذ لا وجود لذاتية مستقلة في فهم الواقع الاجتماعي، كما هو الأمر لدى الاتجاه البنيوي الوظيفي، ولا للموضوعية المستقلة بذاتها، بحسب ما بيَّن الاتجاه المادي التاريخي(٩)، وقد أشار بورديو في كتابه "الرمز والسلطة" للاتجاهين السابقين بقوله: "هُناك من يُسلِّم بوجود واقع اجتماعي مستقل عن وعي الأفراد وإراداتهم، ثمَّ هُناك مَنْ يرُد الواقع الاجتماعي إلى الوعي الذي تكوَّن لدى الأفراد عنه،

فيتخذ موضوعًا له، وللمعرفة الأولى للعالم الاجتماعي"[١٠]، لذا فقد تبنى بيير بورديو البنيوية التكوينية على المستوى السوسيولوجي بمعنى أنَّه يوفق بين الفعل والبنية، أو يجمع بين دور الفاعل المجتمعي وبنية المجتمع. فكل واحد من هذين العنصرين يؤثر في الآخر، وبعبارة أخرى، فإن هناك تفاعلًا وتماثلًا بين الفاعل والمجتمع، وبهذا يكون بورديو قد تأثر بالبنيوية التي تعتبر الإنسان نتاج بنيات وقواعد حتمية، وفي الوقت نفسه تأثر بماكس فيبر الذي يعتبر الإنسان فاعلًا وبانيًا للمجتمع، وبذلك يتجاوز بورديو ثنائية الذاتية والموضوعية، وثنائية الفعل والبنية مع تحكيم الهابيتوس في كل هذه الثنائيات باعتباره عنصرًا وسيطًا وجامعًا موحدًا[١١]، فأصل الفاعليَّة الخارجية ليس ذاتًا تواجِه المجتمع كشيء خارج عنه. وهو لا يقوم لا في الوعي ولا في الأشياء، وإنما في العلاقة التي تربط حالتين من أحوال المجتمع، أي بين التاريخ الذي يسكن الأشياء في صورة ذلك النظام للاستعدادات، والمواقف التي نسميها الهابيتوس[١٢]، بحيث يسمح مفهوم الهابيتوس باستيعاب المعطى الموضوعي المكوِّن للظاهرة الاجتماعية، ويسمح في الوقت نفسه بتجاوزه من خلال إعادة الاعتبار إلى التجربة الذاتية للفاعلين، أي إلى المعرفة والممارسة العملية للأفراد المنخرطين في علاقات اجتماعية محددة. ويقول بورديو لحل إشكالية الموضوعية والذاتية، فإنَّ الهابيتوس هو الصيرورة المزدوجة لاستدخال الخارج، وتخريج الداخل[١٣]، ويذهب هوسرل إلى أن الوعي دائما قصدي، فقد يكون تخيلًا أو تذكرًا، أو تفكيرًا منطقيًا، إلا أنَّه يتجه دائمًا نحو صوب الشيء المفكر فيه، ومن هنا يكون الوعي بالذات هو انفتاح على الذات عن طريق قصدية معينة، وهكذا نتمكن من القول بأن الإنسان لا يستطيع أن يتمثل نفسه في غياب العالم من دون أن يسقط في مذهب الأنا وحدي[١٤]، غير أن أهم ما يميز التصور الظاهراتي للوعي هو القصدية، ذلك كون الوعي مبدأ ووجود معرفي

يظهر عن طريق حركيته نحو الأشياء، فالوعي لا يكون خالصًا مجردًا، (كالعقل في الفلسفات التقليدية)، وإنما هو توجه دائم إلى شيء ما، وهذا يعني أنَّه ومضمونه شيء واحد، إذ يُقوِّم أحدهما الآخر[١٥]، فالوعي الظاهراتي مبني على حركية تفاعلية مبدأ وجودها الإنسان في كيفية اتصاله المعرفي وإثبات دوره الفاعل في معرفة الشيء لذاته، أي بمعنى ما يكمن من مقصدية في معرفة الشيء وغرضه القصدي، فكل وعي هو وعي معرفي بصبغة مقصودة معينة، فوعي الفرد يقف على المدركات – الظواهر والمواقف في الواقع – ، إذ يحولها في ذهنيته إلى منشطات ثقافية في خانة الامتلاك المعرفي التي تعمل على تشكل أيديولوجية خاصة قوامها في أقصى درجاتها المقصدية الإنتاجية، وهذا يمكن أن نطلق عليه (قصدية الوعي)، وقد ربط هيدغر وجود الذات بالوعي؛ "لأن المقصود بالوجود هنا هو الموجود الإنساني المشتق من الوعي في قصديته المعرفية "[١٦]، وبعبارة أخرى فإن هذا الوجود الذي يجعل الإنسان موجودًا بالفعل عبر الحركة والبحث والكشف عن وجوده المعرفي، فهو ما يشكل سؤالًا عن معنى وجوده في هذا العالم، فما يبحث عنه بسؤاله هذا يخلق علاقة تكوينه بذاته تخرجه من الإنسان العادي المتشابه مع الموجودات إلى الإنسان الذي يبحث عن وجوده الحقيقي، وبعبارة أخرى، تنقله من الإنسان اللامعرفي إلى الإنسان المعرفي، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يطرح هذا السؤال بما يمتلكه من قدرة على محاورة عالمه الخارجي، لذا يرى هيدغر بأن مسكن الوجود اللغة لا بوصفها أداة اتصال، بل تسمية للموجودات وإظهارا لها في الإنسان، ومن هنا كانت مسكنا للوجود الإنساني[١٧]، وينطلق موريس ميرلوبونتيي من فينومينولوجيا الإدراك الحسي ليصل إلى فينومينولوجيا الوعي والخبرة، لأجل الكشف عن الطابع المفتوح للخبرة البشرية بصفة عامة، ويقصد بالإدراك الحسي تلك العودة إلى الأشياء والرجوع إلى المعرفة

الأولية عن كل علم من أجل الوصف وليس من أجل التركيب، ويرى أن العالم ليس بمثابة الموضوع الذي يمثل أمام الذات الواعية، إن هذه الذات ليست لها القدرة على تملكه، ولكنه الوسط الطبيعي أو المجال الأولي الذي تتحقق فيه إدراكاتنا الحسية للعالم.إن الوعي الإنساني حسب ميرلوبونتي يدخل في علاقة مشاركة مع العالم الخارجي، فيه تتحقق الإدراكات الحسية التي يمكن عَدّها شرط أساسي لقيام الوعي بهذا العالم [١٨].

ثانيًا– الذات.. رؤية الوعي وهوية الوجود:

واجهت العلماء صعوبات في تحديد مفهوم الذات بوصفها محورًا أساسيًّا في انسجام وتكامل الشخصية والتحقق من فهمها، فكل ينظر إليها من زاوية فلسفية؛ إذ تعددت المصطلحات التي أطلقتها النظريات المعرفية وبحسب رؤيتها الخاصة، مع وجود الاختلاف بين الآراء داخل النظرية الواحدة تبعا للرؤية التي تجيز لها البحث فيها من منظور منهجي، على الرغم من وجود دراسات وبحوث تناولت المفهوم.

تعد الذات من أهم العناصر الرئيسة المكونة للشخصية تساعد على رسم رؤى جديدة تتسم بالوضوح والشمولية من أجل اتساق وبناء الشخصية بوصفها مصدرًا للتأثر والتأثير، فضلًا عن كيفية التفاعل مع الظروف المحيطة، إذ تولد الاكتساب المعرفي الذي يمنح لها صفة التواصل مع الآخرين في إطار المنظومة الاجتماعية، فالذات المحور المركزي القائم عليها وجود الشخص، فلا شخصية بلا ذات – الذات الواعية – المدركة للواقع الاجتماعية، فالذات صورة الواقع المتجسدة في أفعاله، لذا فإن الذات في تعاملها مع الواقع يختلف بحكم التغير الذي يصيبه، وهذا ما يشير إلى أن النظر إلى مفهوم المحاكاة قد تغير مع طبيعة التطور النقدي وصولًا إلى عصر ما بعد الحداثة؛ لأن الفنان لا يصور واقعه تصويرًا حرفيًا، فالذات محور الكائن بوصفه عنصرًا ديناميكيًا وحضورًا وظيفيًّا مؤثرًا في تشكيل واقعه.

تعد الذات صورة مجردة محملة بالجرع الشعورية فيما يعتقده الشخص اتجاه نفسه بوصفها مرآة عاكسة، فهي تتحقق بمساعدة التطور الأيديولوجي ضمن فلسفة معينة توصل بالشخص إلى طور التكامل، وهذا ما نجده عند (ادلر)؛ إذ يرى بأن الذات "تمثل تنظيمًا يحدد للفرد شخصيته وفرديته، وهذا التنظيم يفسر خبرات المثقف العضوي ويعطيها معناها، على أن هذه الذات هي حجر الزاوية في بناء وتنظيم الشخصية، وهي تشغل مكانًا متوسطًا بين المثيرات التي يتعرض لها الفرد، والاستجابات التي تصدر عنه"[١٩]، فهي تدخل في طور البناء عن طريق التصارع بين الفرد والبيئة؛ إذ تعتمد على خلفيتها الثقافية فتنتج ذات بصفات تتباين عن الذوات الأخرى، وهي ذات مركبة عن طريق تفاعل سلوكيات الأفراد في المجتمع، وهذا ما يجعله مفتوحًا غير محدد بحدود تجعل منه هيكلًا ثابتًا، بل يجعل منه مفهومًا مكتسبًا من الخبرات، وهذا ما يولد حالة من الملكية الذاتية تتولد عنه شعور وإحساس الفرد بهويته وكينونته، فمعرفة الذات لحقيقة وجودها ينطوي على معرفة الذوات الغيرية المتجسدة في ما يفرزه التعامل معها، ويرجع ذلك وبحسب طبيعة العلاقة بين الذات العارفة والموضوع المعروف وبحسب ما يذهب إليه بول ريكور، فإن ثبات هذه الذات في طبيعة هذه العلاقة لم يعد ممكنًا؛ لأن الذات غير معطاة لا في بديهة نفسية ولا في حدس ذهني ولا في رؤية صوفية، وبهذا تتحول الذات إلى موضوع للمعرفة يصعب احتواؤه، لذلك كان لا بد من التوغل أكثر ضمن حدود هذه العلاقة المعرفية، للإحاطة بالذات وما يُشكِّل خارجًا عنها، أي تحديد الآنية عن طريق جدلها مع الغيرية[٢٠]، والذات عند كارل يونغ تقع بين الشعور واللاشعور، وتكون قادرة على إعطاء التوازن للشخصية كلِّها، وأن أعلى مستوى للتفاعل داخل النفس هو الذات، ويحقِّق الوعي بالذات الوحدة للنفس، ويساعد على تكامل كلٍّ من الشعور

واللاشعور[٢١]، وعلى ذلك يمكن القول : "إن يونغ لا يقصد بالذات كينونة فلسفية أو مفهومًا نظريًا صرفًا، بل مفهوم الذات عنده مفهومًا نفسانيًا، أعاد يونغ اكتشافه تجريبيًا، فوجد في الذات نقطة الوسط أو المركز في الشخصية، تتجمع حولها النظم الأخرى، وهي تجمع هذه النظم معًا، فتمد الشخصية بالوحدة والتوازن والثبات"[٢٢]، وقد حاول مارتن هايدغر أن يربط بين الوجودية والذات، وقد جعل الوجود مرحلة تالية ما بعد الذات – مرحلة متأصلة متجاوزة الذات–، وبعبارة أخرى، فإن العتبة لانبثاق الوجود هي الذات بفعل الإنسان الذي هو أساس الوجود؛ لأنه قادر على مجاوزة الذات والتحول من الذات الثابتة (الكائن) إلى الذات المتحولة (الفعلي)، وقد حدد هايدغر فكرة ومعنى الوجود اعتمادًا على هذا الأصل بـ (الوقوف خارج الذات) الذي يعني به قدرة الذات على تجاوز نفسها دائمًا وتجددها وإلقاؤها في حيز الممكن الأفضل والمتحقق في الذات الإنسانية، وعدم الثبات والسكون والوقوف على هيئة وحالة وجود واحدة الذي به موت الذات المتحققة في الأشياء التي توجد بفعل الإنسان[٢٣]، وفي هذا الصدد يقول مارتن هايدغر"بأن الإنسان لا يمكن أن يحقق وجوده إلا حين يحقق ذاته" إن عليّ أن أكون موجودًا، وعليّ أن أحقق ذاتي"، وجعل تحقيق وجود الإنسان/الآنية عن طريق أدوات ثلاثة تتحقق من خلالها ذاته:

١– الفهم : فعندما يفهم الإنسان الأشياء التي أمامه ويتمثلها داخله، فإنه يكشف عن وجوده داخل تلك الأشياء.

٢– الموقف: فالإنسان يشعر بوجوده، وموقعه المادي من خلال موقفه من الآخر.

٣– الكلام : والمقصود به القدرة على صنع المعنى وترتيب الأفكار، التي يتحول الإنسان من خلالها إلى مصدر للحياة كامل الوجود، مستقلًا عن غيره [٢٤].

فإن إثبات وجودية الفرد ناتج عن وجوده الذاتي الفعلي في العالم الخارجي وهي دلالة على قابلية الذات بالعمل خارج حدودها المرسومة للاحتكاك مع الموجود في الواقع، فالإنسان بتفاعله مع البيئة يكتسب الخبرة التي تنمي من التفكير العقلي، لذا فهو في تحول وتطور عقلي مستمر من الكائن إلى الفعلي.

وقد فرق عالم الاجتماع جورج هربرت ميد بين مرحلتين من التفسير من قبل الذات، الأولى: مرحلة الرؤية الفردية للواقع التي تنشأ عن توجهات الذات نحو الآخرين واتِّجاههم نحوهما، والثانية الرؤية النحنونية التي يبدأ فيها الفرد بالتفكير من منظور الجماعة، وليس من منظور الفرد نفسه، فهو يعمل على تكييف الذات مع الواقع، فالرؤية النحنونية بمثابة انصهار الأنا والآخر في بوتقة الذات حتى يصبحا كّلًا واحدًا[٢٥]، وهذا ما يتفق مع رؤية غولدمان؛ فهو لم يهتم برؤية الذات بوصفها رؤية فردية بل جماعية، فهي قابلة للانصهار في الذوات الأخرى، فالرؤية الذاتية للفرد لا يعبر عن ذاته بل يتعدى بها إلى رؤية الطبقة الاجتماعية، فالظاهرة الأدبية ظاهرة جمعية لا فردية تتصل بطبقة اجتماعية توافقها، وهذا في الحقيقة ما شكل رؤيا العالم المرتبط بالوعي الفردي عند غولدمان التي تنطلق من أساسين ؛ فالأول الوعي الفعلي والثاني الوعي الممكن، فالفعل القولي الخطابي خاضع للتعبير عن الذات، ولا ينفك من سلطة الذات، فالظاهرة الأدبية لا تنفك من تأثير الذات في التعامل مع الذوات الأخرى، فهي المحور الرئيس في تكوين الشخصية، وقد أكد الدارسون على "أنّ الفعل القولي في مجمله ذاتي وليس ثمّة من خطاب في مأمن من سلطة الذات وإن اختلفت القرائن الدالة عليها، فهي متحقّقة وإن تفاوتت على قدر تحقّق الاختيار في الخطاب" [٢٦]، فالذات مساحة للتخزين الشعوري واللاشعوري القابع تحت تأثير الرغبات الإنسانية

المتصادمة مع العالم الخارجي التي تخرج بأسلوب يوضح العلاقة بين النص والذات، فهي متعددة الاشتغال في تحقيق وجودية الفرد عن طريق تهيئة الموجودات للتحقيق الإبداعي، ويذهب روبرت ميرتون إلى أن الشعور الحقيقي للتحقق من وجود الفرد هو خلق حالة من الاعتراف بذاته وفق خصائص وصفات ينماز بها عن الذوات الأخرى التي تتولد بفعل ديناميكية الذات وحركيتها، وبعبارة أخرى، فإن فهم الفرد لذاته فهمًا حقيقيًا وإدراكها، قائم على تنشيط وتفعيل الوعي لمعرفة ذاته. وهذا قريب من عمل ديكارت عندما حرر طاقات الإنسان الفكرية ورفع عنه ستار الجهل الذي كان يغلق وجوده، وقد أعاد للإنسان ذاتيته وأوكل إليه تحقيق ماهيته بإرسائه للكوجيتو الديكارتي"أنا أفكر إذا أنا موجود" فهذا الانقلاب الفكري أسس للحقيقة معايير جديدة أساسها تحقيق الوجود وكينونة جديدة مركزها الإنسان(٢٧)، فالذات عند ديكارت هي بشكل مباشر عبارة عن وعي "أي لها القدرة على التفكير في العالم الخارجي والتفكير في التفكير نفسه، وداخل هذه الذات لا وجود ولا حضور إلا للوعي" (٢٨) ، فالذات بمفهوم ريكور ترتبط كشرط أساس بالوجود، فهي ذات مفكرة ومتعقلنة بوصفها سلوكًا تجريديًا غير محسوس تساعد الشخصية على تحليل المواقف وقراءة الواقع وتفسير الأحداث مما يحقق من وجودها الأيديولوجي المتميز وهذا ما يعزز من ثقافة الشخصية.

الخاتمة:

إن المكونات الأساسية التي تتشكل منها مادة الوعي هي التصورات المرتبطة بالعالم الخارجي؛ إذ إنها تخضع للمنظومة المعرفية العقلية، ومن ثم تظهر على شكل تمثلات تدل على رؤى ذاتية تعبر عن الفرد، وبحسب العمق المعرفي الفردي يبحث فيه الوعي في معالجة المنتج، فالوعي تجربة إنسانية لا نهاية لها، فلا يمكن أن تسور الوعي بحدود تحد من طاقته الاستيعابية التي على أثرها تحدد مساحة الوعي المعرفي الإبداعي وبحسب طاقاته الاستقبالية الاستيعابية للاشتغال الإنتاجي؛إذ يعتمد على مدى شعوره بالمحيط به، فالمنطقة الشعورية تعد حقلًا استعداديًا يضم تخزين الأفعال المعدة للعالم الخارجي وفق ما يستقبله من إيعازات عقلية عن طريق منافذ الحواس تنتج عن وعي بادراك الأشياء والتفاعل معها، وما يترتب على ذلك من توجيهات تؤطر صورة الأفعال السلوكية _ حركة، فهم _ في المجتمع.

فالوعي هو الحضور الفعلي للكائن المتمثل في الشعور بما حوله؛ إذ ينتج عن تكوين أفكار ورؤى ومفاهيم يرسمها الفرد عن نفسه أو عن عالمه المادي المحيط به، وهي ردة فعل من الذات باتجاه الآخر في العالم الخارجي.

الهوامش

(١) مقال عن المنهج، رينية ديكارت،تر: محمود محمد الخضري، ط٢، دار الكتاب العربي، ١٩٦٨: ١٥٤.

(٢) ينظر: تاريخ الوعي مقاربة فلسفية حول جدلية ارتقاء الوعي بالواقع، مونيس بخضرة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٩:٢٢.

(٣) ينظر: فينومينولوجيا الروح، جورج فريدريش هيغل، تر: ناجي الؤنلي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦ : ٢٥٧_٢٦٠.

(٤) ينظر: بحث في المعطيات المباشرة للوعي، هنري برجسون، تر: الحسين الزاوي، مركز الدراسات الوحدة العربية ، بيروت، ٢٠٠٩ : ١٠٥ وما بعدها.

(٥) جماليات اللغة في القصة القصيرة، أحلام حادي ،المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط١،٢٠٠٤:٣٣.

(٦) صراع التأويلات: دراسات هيرمينوطيقية، بول ريكو، تر: د. منذر عياش، مراجعة:د. جورج زيناني، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١، ٢٠٠٥:١٩٧.

(٧) ينظر:الدماغ والفكر، تشارلز فيرست، تر: محمود سيد رصاص، ط١، دار المعرفة، دمشق ، ١٩٨٧:٣٧.

(٨) ينظر : الدماغ والفكر، تشارلز فيرست: ٣٨ .

(٩) بحث في شبكة المعلومات بعنوان " المفاهيم السوسيولوجية عند بيير بورديو، د. جميل حمداوي.

(١٠) الرمز والسلطة، بيير بورديو ، تر: عبد السلام بن عبد العالي ، ط٣ ، دار توبقال ، المغرب، ٢٠٠٧:٦٤.

(١١) يعرّف بورديو الهابيتوس بأنه : " تهيُّؤ عام يولِّد تصوُّرات خاصة قابلة للتطبيق في ميادين مختلفة من الفكر والعمل". ويعني أنَّ الهابيتوس "مجموعة من الاستعدادات المكتسبة، والإدراك، والتقويم، والفعل الذي طبعها المحيط الاجتماعي في لحظة محددة وموقع خاص"، فضلا عن ذلك فإنَّ الهابيتوس هو نسق الاستعدادات المكتسبة في الوقت عينه، ومنتج الممارسات، وأصل الإدراكات، وعمليات التقويم والأعمال أي : " القواعد المولِّدة للممارسات" فالهابيتوس يتوسط بين العلاقات الموضوعية والسلوكيات الفردية، فهو في الوقت نفسه ناتجٌ عن استبطان الشروط الموضوعية، وهو الشرط اللازم للممارسات الفردية، ينظر:العلوم الاجتماعية المعاصرة ، بيار انصار، تر: نخلة فريفر، ط ١، المركز الثقافي العربي، بيروت ، ١٩٩٢ : ٢٩_ ٣٦ ،

وللاستزادة ينظر: ينظر: معجم بورديو، ستيفان شوفالية، وكرستيان شوفيري، تر: د. الزهرة ابراهيم، نايا للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠١٣ : ٢٨٤ _ ٢٨٨. الجسد والطبقة ورأس المال الثقافي: قراءة فيسيولوجية بييربورديو، حسني إبراهيم عبد العظيم مجلة إضافات، ع (٥) ، ٢٠١١، ٦٠ _ ٦٢.

(١٢) الرمز والسلطة ، بيير بورديو: ٢١.

(١٣) ينظر: عصام العدواني، السوسيولوجيا والمجتمع لدى آلان تورين وبياربورديو، مجلة الإضافات، ع (١٢)، ٢٠١٠ : ٤١_٤٢.

(١٤) ينظر: تأملات ديكارتية: مدخل إلى الفينومينولوجيا، ادموند هوسرل، تيسير شيخ الأرض، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت،١٩٥٨:٥٧ وما يليها.

(١٥) جماليات الشعر العربي: دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، هلال الجهاد، مركز دراسات الوحدة العربية للنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٧:٥٥.

(١٦) قصدية الوعي تعني فعاليته الايجابية في صنع ذاته وموضوعه في آن معا، وأنها وحدة بينهما تشكل نسيج الوعي نفسه (فعل _ فاعل) وترقب حيوي مستمر غايته، تحديد الماهيات الخاصة (التي تظهر الوعي) عن طريق الربط والتأليف والتحليل، ويترتب على هذا أن قصدية الوعي ستحقق تجاوز النظام الثنائي، إذ أنها تفرض تداخلا واشتقاقا مشتركا لكل من البنية الذات والموضوع، إذ تنفي هذه الواو التي تفصل بينها وتكون لها بنية الفعل القصدي نفسه، ومن ثم فان ماهية أي ظاهرة تتحول لتصبح ماهية الوعي، فهو حين يعي ماهية ما، فانه يعي انه يعيها، فيحقق بذلك وجوده، ولهذا قال سارتر "أن الوعي موجود بمقدار ما هو وعي لوجوده "فهكذا تؤسس القصدية كون الوعي مبدأ الذات المعرفية_ الإنسان_ ووجودها وماهيتها الوظيفية. جماليات الشعر العربي: دراسة في فلسفة الجمال في الوعي الشعري الجاهلي، هلال الجهاد : ٥٥_٥٦.

(١٧) ينظر نداء الحقيقة ، مارتن هيدغر ، تر: عبد الغفار مكاوي، دار الثقافة ، القاهرة ١٩٧٧:١٨٩.

(١٨) ينظر: ظواهرية الإدراك، موريس مرلوبونتي، تر: فؤاد شاهين، ط١، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٩٨:٣٠١ وما بعدها.

(١٩) سيكولوجية العلاقة بين مفهوم الذات والاتجاهات ، عبد الفتاح دويدار: ٣٢ .

(٢٠) ينظر: الذات والغيرية في فلسفة بول ريكور، العربي ميلود، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠١١ : ٣٠.

(٢١) ينظر : سيكولوجيا الشخصية: محدداتها، قياسها، نظرياتها، سيد محمد غنيم، دار النهضة العربية، القاهرة، د . ت : ٥٧٧.

(٢٢) سيكولوجيا الشخصية : محدداتها، قياسها، نظرياتها، سيد محمد غنيم : ١٠٥ .

(٢٣) ينظر: قراءة نقدية في وجودية سارتر، علي حنفي محمود : ١٠.

(٢٤) ينظر: موسوعة الفلسفة، د.عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات للنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٤ : ٧٠١_٧٠٥ .

(٢٥) ينظر:علم الاجتماع بين الاتجاهات الكلاسيكية والنقدية، احمد زايد، دار المعارف، مصر، ١٩٨٤: ٣٩٧.

(٢٦) في الحقيقة تختلف زاوية الرؤية للذات بحسب الفلسفة النقدية للمنهج ومرجعياتة التي تحدد التعامل مع الذات في إنتاج العمل الأدبي وهي:

(٢٧) ينظر: الذات عينها كآخر، بول ريكور، تر : جورج زيناتي، مركز دراسات الوحدة العربية للتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥ : ٧٤ .

(٢٨) الذات والغيرية في فلسفة بول ريكور، العربي ميلود: ٤١.